دراسة سوسيولوجية في مجموعة (نوبات شعرية) للدكتور صالح الطائي

م. د. رسول بلاوي
جامعة بوشهر/ ايران

المفردات الدليلية: السوسيولوجية؛ العراق؛ صالح الطائي، نوبات شعرية.

المقدمة:

إنّ العلاقة الوطيدة بين الأدب والمجتمع تشكّل همزة وصل، بامكانها رسم المناخ السائد على المجتمع طوال مختلف الفترات الزمنية. وقد لعبت كلمات وأشعار بعض الشعراء التقليديين دوراً بارزاً في توعية جماهير الناس ومعرفتهم بالتطورات الإجتماعية والسياسية (مدني، ١٣٨٦ش: ١٧٣). من هنا يمكن القول بأنّ الآثار الأدبية لم تتكوّن من فراغ ومن دون أرضية مسبقة، بل إنّها ترى النور وسط أجواء إجتماعية محيطة بها، ونظراً إلى المقولة التي تقول بأنّ الشاعر نتاج عصره وابن بيئته دوماً، فنرى تأثيره بالمجتمع ومختلف القضايا الاجتماعية.

سوسيولوجية الأدب أو المنهج الاجتماعي للأدب، علمٌ يدرس المجتمعات الإنسانية وظواهرها الاجتماعية ويساهم مساهمة جليلة وفعّالة في تتبّع مشاكل الفرد والمجتمع، وقد يناقش الحلول في نفس الوقت وهو منهج يربط بين الأدب والمجتمع في شتّى المجالات ومختلف المستويات ويدرس العلاقة بين المجتمع والأدب، باعتباره انعكاساً للحياة. إنّ القضايا الاجتماعية كانت –ولا تزال- تُعتبَر من أهمّ هواجس الإنسان الملتزم بتطوير مجتمعه منذ القدم، كما كانت محط اهتمام الشعراء.

تشكّل القضايا الإنسانية والشعبية دائرة اهتمامات صالح الطائي وهواجسه، فيظهر في نصوصه نوع من الشعور بالمسؤولية قلّ نظيره، أمام الوطن وظروفه. والسبب يعود إلى كونه تأثّر بالمجتمع وما يتعرّض له من تغييرات، فـ «ليس من شك في أن رؤية كل شاعر للإنسان تختلف عن غيره من الشعراء، اذ يستحيل على أي شاعر أن يكتب عن كل جوانب الإنسان فهو لا يرى فيه إلّا ما يستشعره في نفسه عن أحاسيس و عواطف و أفكار» (هدارة، ١٩٩٠م: ١٤٨) فلو ألقينا نظرة على ديوان الطائي لرأينا النظرة الإنسانية المنبثقة عن حب الإنسان العراقي، بوضوح وجلاء في نصوصه ونرى قضايا المجتمع وهموم الناس يشكّلان ركيزتين لكل المقاربات والرؤى.

الباحث والمفكر الاسلامي صالح الطائي لم يغفل عن هموم شعبه والقضايا الاجتماعية التي تحيط به فانبرى لكي يساهم في هذا المجال برؤية جديدة وعقلية ناضجة. يقول عنه الدكتور رحيم الغرباوي في استشرافه لديوان الطائي «وحين نقرأ مجموعة الباحث الإسلامي الدكتور صالح الطائي نجده متأثراً كثيراً بالأحداث التي داهمت بلدنا العراق، فنراه يجيب عنها بردود فعله وقناعاته التي حددتها مسيرة حياته، وقناعة معتقدة تجاه الواجب الديني وواجبه الوطني، وإن كانت أغلب قصائده تسودها التقريرية إلا أنّها عبّرت عن شعوره الداخلي الصادق تجاه وطنه، ومجتمعه، وذاته» (الطائي، ٢٠١٧م: ١٣ و١٤).

جاءت هذه المجموعة في وقت متأخر وذلك بعد نضوج الشاعر العلمي والمامه بالقضايا الاجتماعية والدينية والفلسفية، فهذه الخلفية الخصبة انعكست في المجموعة بشكل جلي. أمّا بالنسبة لاتجاه الطائي في هذه المجموعة واصدارها المتأخّر فنرى يقول: «وبعد التغيير في عام ٢٠٠٣م والأحداث الدموية المؤسفة التي رافقته، يوم بدأت الأحداث تعصف بوطننا العراق وعالمنا العربي والعالم كله، فأخذت تعتصرني، فتحيلني لهبا يتشظى قهرا، وبدل أن أسكب الماء لأطفئ ناري، تحشدت رؤاي مزمجرة، لتتحول إلى شعر أو ما يشبه الشعر، يزاحمني ليرى النور، واكبته وكتمته لكي لا يشغلني عن أهدافي المرسومة، لكنه مع هذا وذاك كان يتشيطن بل يتعفرت، وينط خارجا بين حين وآخر. وأغلب تلك القصائد جاءت ردت فعل مفاجئ، فكانت مفاجئة، ومن هنا ستجدونها وكأنها مجرد محطات وجع سرمدي، بعثها في خاطري نوبات من الغضب القهري،

فكانت وليدة الارتجال وبنت لحظتها، فأخفيتها حينا، وأعلنتها حينا آخر ....» (السابق: ٥و٦). يقول الدكتور رحيم الغرباوي: «إنّ تهجّدات شاعرنا، وبوحه تجاه مجريات الأحداث التي مرّ بها يجعلنا نتيقن أنّ شعره من صلب المجتمع؛ لذا جاءت قصائده مباشرةً وكأنه يريد أن يبرق رسائله وتجاربه إلى قرّائه، كما هو بحثه العلمي في مؤلفاته الكثيرة، إذ تلامس أشعاره قلوبهم؛ لما فيها من شعور صادق تجاه نفسه والوطن والمحيط من حوله» (السابق: ١٨).

سوسيولوجية الأدب

تُعّد سوسيولوجية الأدب أو علم الإجتماع الأدبي، فرعاً من فروع علم الإجتماع العام ويهتم هذا الفرع بدراسة الظواهر الفنية والأدبية في ضوء مقوّمات وظواهر إجتماعيّة؛ فهي دراسة علمية تنظر في فحوى الأثر الأدبي وجوهره في علاقته بجوانب الحياة الاجتماعية الأخرى. سوسيولوجية الأدب مجالٌ جديدٌ وخصبٌ من حقول الدراسات الأدبية التي حظيت باهتمام الباحثين والناقدين. هذا الحقل يربط البُنى الشعرية بالوضع الإجتماعي والسياسي للعصر المعاش. «ويعني هذا أنّ الأدب يعكس المجتمع، أو هو بمثابة مؤسسة مجتمعية كباقي المؤسسات الأخرى التي لها دور هام داخل النسق الإجتماعي ومن ثم فالأدب له تأثير كبير في المجتمع، كما للمجتمع تأثيره الخاص في الأدب. إذاً هناك تأثير وتأثّر متبادل» (حمداوي، ٢٠١٥م: ٤). و«في الحقيقة إنّ سوسيولوجية الأدب هي دراسة علمية لفحوى الأثر الأدبي وجوهره في علاقته بجوانب الحياة الإجتماعية الأخرى» (ستوده، ١٣٧٨ش: ٥٦).

تتطرّق سوسيولوجية الأدب إلى تحليل النص الأدبي في ضوء سياقه الواقعي بكل معطياته الاجتماعية والثقافية والتاريخية والسياسية ويربط الإبداع الأدبي والفني، بواقعه الاجتماعي بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. تمثّل مفاهيم وأسس علم الاجتماع آليةً لتقييم وظائف النصوص الأدبية اجتماعياً. فـ «علم اجتماع النص أو سوسيولوجية النص هو المنهج الذي يدرس المجتمع في النصوص الأدبية أو يقرأ المجتمع داخل النص أو بتعبير آخر هو معرفة الطريقة التي يتفاعل بها النص الأدبي مع المشكلات الاجتماعية والتاريخية على مستوى اللغة» (زيما، ١٩٩١م: ١٧١).

تهتمّ سوسيولوجية الأدب بدراسة الظواهر الاجتماعية في البيئة التي ينتمي إليها الأديب وما عاش فيه من أوضاع اجتماعية وظروف سياسية وفكرية. على هذا فإنّ سوسيولوجية الأدب وفي نظرة عامة، تريد إقامة علاقة بين الأدب والعناصر الاجتماعية، لهذا يبدو أنّ بيئة الشاعر أو الكاتب لها دور كبير في خلق الأثر. «إنّ الأدب يعبّر عن المجتمع وأنّ لكل مجتمع من المجتمعات، الأدب الذي يستحقه ولهذا أنّ أدب مجتمع القرن السابع عشر الكاثوليكي، كان عظيماً وأنّ أدب مجتمع القرن الثامن عشر الملحد، كان سيئاً» (تاربيه، ١٩٤٤م: ١١٥).

وخلاصة القول إنّ سوسيولوجية الأدب تتعامل مع الظواهر الأدبية تعاملاً اجتماعياً فهماً وتفسيراً وتربط الأدب، بالمؤسسات الاجتماعية وترصد مختلف العلاقات المباشرة وغير المباشرة التي تتصل بالمجتمع. هذه الدراسات رغم أنّها حديثة العهد في النقد الحديث لكنها تحاول دراسة القضايا الاجتماعية وتتبيّن علاقتها بالأدب بشكل واضح وملموس. «الدراسة السوسيولوجية للأدب، بمفهومها الحقيقي، فهي حديثة العهد وما زالت منجزاتها متواضعة حتى وقتنا هذا، ويمكن وصف هذا المجال بأنه وجهة نظر أو موقف معين تجاه الأدب» (حجازي، ٢٠٠٧م: ٣١).

الظروف الاجتماعية في العراق المعاصر

لا شك إنّ التعرّف على الأوضاع الاجتماعية العراقية سيوفّر لنا قدراً من إمكانية التعرّف على مدى تأثّر الشاعر بأحداث المجتمع وظروفه الخاصة. يحاول الطائي في ديوان "نوبات شعرية" أن يقدّم صورة أقرب إلى الواقع عمّا يدور في المجتمع العراقي. وإنّنا في دراستنا السوسيولوجية لهذا الديوان ارتأينا أن نقدّم نبذة عن هذه الأحداث التي مرّ بها البلد حتى نتمكن من التطبيق والتحليل بشكل أدقّ.

تَعرَّض العراق طوال تاريخه إلى أحداث جسيمة منها ثورة أحمد حسن البكر العسكري، حيث تركت هذه الثورة تأثيرها على حياة شعراء العراق المعاصرين، وقد واجهت هذه الثورة، سخطاً على مستوى الشارع العام. ومنذ عام ١٩٧٠م تولّى حسن البكر وصدام حسين قيادة العراق، فهيمن حزب البعث على العراق وخلّف استبداداً خانقاً. إنّ قادة البعث لم يمتلكوا المكانة الاجتماعية بين المواطنين، فللحفاظ على مكانتهم السياسية قاموا بالقمع والكبت، ووضعوا قوانين عنيفة، وحذفوا كل صوت معارض، من جهة أخرى سلّم أحمد حسن البكر كلَّ صلاحياته عام ١٩٧٩ إلى صدام، وشنَّ صدام طوال حكمه حربين على إيران والكويت، تركتا ورائهما خسائر مادية وروحية فادحة (نعمتي قزويني و ايشاني، ١٣٩٢ش: ١٣٣).

أخيراً وبعد الغزو الأمريكي وحلفاءها ضدّ العراق عام ٢٠٠٣م سقطت حكومة صدام، ودخل العراق في مرحلة جديدة من الحرب، والكفاح والنضال، وحارب الجماعات التكفيرية والإرهاب، وقد تركت هذه الأحداث الأليمة تأثيراً كبيراً على حياة العراقيين الاجتماعية، وهذه الأوضاع خلّفت وراءه تدهوراً اجتماعيّاً ملحوظاً. وأهمّ سمات هذا التدهور الاجتماعي في الوقت الراهن هي حالة الإحباط الكبير الذي أصيب بها المجتمع، ثم ازدياد الفقر والبطالة والتغريب والتهميش، والمظاهر اللاانضباطية في الشارع وغياب القانون، والحرمان من أبسط الحقوق. وفي الواقع إنّ الشاعر يقضي في هذه الفترة أسوأ فترات حياته، ينعكس تأثيرها على شعر الشاعر.

سيرة حياة صالح الطائي

صالح الطائي باحث وكاتب في الفكر الإسلامي ومقارنة الأديان. وُلد في ديالى ونشأ وتعلّم في بغداد، ويسكن حالياً في مدينة واسط. حاصل على شهادة بكالوريوس تاريخ؛ ودكتوراه شرف فلسفة / لاهوت. له (٣٢) كتاباً ورقياً مطبوعاً ومنشوراً، وعدة كتب الكترونية. ومن كتبه:

- نحن والآخر والهوية.
- عوالم الحكومة المهدوية، بجزئين.
- خرافة كثرة زوجات الإمام الكاظم.
- جزئيات في السيرة النبوية.
- الحركات المهدوية المدعية.
- ثائر في قرن الدماء؛ سعيد بن جبير.
- الحسن بن علي الإمامة المنسية، بجزئين.
- الإمام الحسن العسكري.
- أثر النص المقدس في صناعة عقيدة التكفير.
- أثر النص المقدس في صناعة عقيدة المثلة وحرق البشر.
- رجال البصرة في كتاب ربيع الأبرار للزمخشري.

كما إنّ له اهتمامات أدبية ونقدية، وأصدر في هذا المحور عدة مؤلفات، منها:

- قراءات انطباعية في حكايات أدبية.
- "نوبات شعرية" مجموعة شعرية.
- حديث في كتابة المقدمة والمقدمات.

اشترك في العديد من المؤتمرات العلمية والتخصصية داخل العراق وخارجه. ونشرت بحوثه ومقالاته في المجلات المحكمة والمجلات التخصصية والمجلات والصحف الورقية والمواقع الالكترونية. له العديد من المقالات التربوية والسياسية

المنشورة في الصحف العراقية والعربية والمواقع الالكترونية. عمل مدة من الزمن رئيس تحرير جريدة صدى واسط الورقية. منح درجة الدكتوراه بالفلسفة/ اللاهوت تقييما لكتاباته وبحوثه ونشاطه في تحليل وحل النزاعات. (نقلاً عن موقع الكاردينيا، مجلة ثقافية عامة، ١٧ / اغسطس / ٢٠١٧م).

جاء الشاعر إلى مدينة واسط مهجّراً يبحث فيها عن الحريةكما يقول نفسه في مقدمة إحدى قصائد ديوانه: «جئتها مهجّراً، فقد حريته يوم خطفوه، وعذّبوه ثلاث عشرة ظلمة ونهاراً، واسترد وجوده عنوةً يوم تحرّر من لأيديهم قسراً؛ وهو الذي ممدوداً على حافات الموت، ينتظر جزاره أن ينجزَ عمله. جئتها مخلّفاً ورائي تاريخاً، وجهداً، وأموالاً، وبيتاً، ومزرعة، وذكريات، وأصدقاء وأهلاً، وأقرباء، ومدينة أحبها، وسنينَ أعشقها» (الطائي، ٢٠١٧م: ٩١).

مدينة واسط ومكانتها في مجموعة للمنوبات شعريةلله:

لاشك لهذه المدينة التي احتضنت الطائي مكانة عظيمة في شعره وقلبه، فقد وجد فيها أماناً وأملاً للعيش مرة أخرى. يقول الشاعر عن هذه المدينة: «جئتها وأنا أظنّ أن لا أرض ستعوّضني عمّا فقدت، وإذا بها واسط النقاء والبهاء والكرم، تفتح ذراعيها؛ لتضمّني كما الحبيب، وأهلها يفتحون قلوبهم؛ لتصبح الوطن، ويصبحوا الأهل، والعشيرة، والأقرباء، والأصدقاء، والجيران في الأفراح والمحن» (السابق: ٩١).

في قصيدة للشاعر موسومة بـ "يا واسط الخير والكرم" يستفتح كلامه بهذا البيت:

لا تبتئس إذ تدلهم خطوبُ وانظر إلى الرحمن فهو مجيبُ

يبدأ المقطع الأول والثاني من هذه القصيدة بالشكر لواسط قائلاً:

شكراً لك
أيّتُها السيّدة الموقّرة
الحضرية البدوية
أيّتها السيدة المبجلةُ
يا سيّدة الزمن الجميل ....
شكرا لك
يا طيبةَ الجنوب
والتاريخ
والحضارة،
يا قمّة الجمال والنضارة (السابق: ٩٢).

فقد أضفى الطائي أجمل الصفات على هذه المدينة فهي بمثابة سيدة موقّرة وسيدة مبجّلة وسيدة الزمن الجميل لمكانتها في قلبه، وأخذ يستذكر تاريخها العريق، ويعتبرها طيبة الجنوب والتاريخ والحضارة، وقمّة الجمال والبهاء. في هذا النص نرى الشاعر يلحّ على استخدام أداة النداء ليقترب من المنادى ويستلذّ بخاطبه لهذه المدينة التي أعادت له نشاطه:

أعدتِ لي حريتي ...،
أمِنتُ في رباك... بغربتي
يوم لملمتِ هجرتي ... تشردي
حنوتِ عليّ كما الأم على بنيها (السابق، ٩٣و٩٤).

فهذه المدينة تبقى مترسخة في ذهن الشاعر يتغنّى بها مدى حياته بعد ما أعادت له الأمان والحرية. وقد وجد نفسه فيها في مأمن يتنعم بالحرية.

التغنّي بالوطن:

الوطن وهو المحور الذي يسمّيه الدكتور محمد جاهين بدوي «بالحوار الجغرافي الطبيعي» (٢٠١٠م: ١١٧و١١٨)، تغنّى به الطائي وأنشد الشعر له على الرغم من كثرة جراحه فأخذ يحث الشعب للدفاع عنه والذود عن كرامته، ويمقت الأعداء ويوبّخ الحكّام الفاسدين الذين ما ارعووا، ولا استكانوا؛ كونهم بمثابة الوجة الآخر لمن رفع السلاح بوجه الوطن، وبات ينخر بجسده الطاهر. بدأ الطائي مجموعته بقصيدة عن الوطن جاء فيها:

سلامٌ على أرض العراق
وأهله
ودجلته
والشجر،
يرقي بزهوك
كل من عرقت أصائله
وطاف حول صرحك واعتمر.
يا أيها الملآن كبراً
أيّها البيت الأغر
لازال أهلوك الكرام
يدفعون الضرّ عنك
ولا فخر.
أنت العراق
وفيك
أغلى مُستقر (الطائي، ٢٠١٧م: ٢٠).

فهكذا يستفتح ديوانه بتحيته وسلامه على الوطن الحبيب وعلى أهله وكل ما يمتلك. فبالرغم من كل المحن التي توالت على العراق إلّا أن أهلها الكرام لازالوا يدفعون الضرّ عن بلدهم ويضحون بأنفسهم لاستقراره. وفي قصيدة أخرى يقول:

هزي إليك بجذع الوطن،
يساقط علينا جنيُّ المحن (السابق: ٣٥)

نرى الشاعر في هذا المقبوس يتناص مع الآية الشريفة: «**وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا**» (مريم / ٢٥)؛ فإذا كانت النخلة تُساقط رطباً جنيّاً فقد أصبح هذا الوطن يُساقط عليهم جنيّ المحن. في هذه القصيدة يتابع كلامه فيبعث السلام على أرض الوطن:

سلاماً لأرضك يا موطني
سلاماً لصرحك
من مأمن
بذلتَ الكثير لنا

كأبٍ مُكرمٍ مُحسنٍ (الطائي، ٢٠١٧م: ٣٦)

فهذا الوطن الأبي بذل الكثير للشعب فكأنّه أب محسن عطوف على أولاده؛ وقد استحق من الشاعر كل هذا التبجيل والاكرام.

مجزرة سبايكر

حلّت بالشعب العراقي جرائم عديدة، وخلّفت وراءها الكثير من الضحايا الأبرياء ممّا أدّت إلى فقدان الأولاد وترمّل النساء ويُتم الأطفال. فجريمة سبايكر اللاإنسانية كانت إحدى الكوارث التي تعلّقت بالذاكرة العراقية. مجزرة سبايكر هي مجزرة جرت بعد أسر طلاب القوّة الجوية في قاعدة سبايكر الجوية في يوم ١٢ حزيران/يونيو ٢٠١٤م، وذلك بعد سيطرة تنظيم الدولة الإسلامية على مدينة تكريت في العراق وبعد يوم واحد من سيطرتهم على مدينة الموصل حيث أسروا ١٧٠٠ طالب في القوة الجوية العراقية وقادوهم إلى القصور الرئاسية في تكريت، وقاموا بقتلهم هناك وفي مناطق أخرى رمياً بالرصاص ودفنوا بعض منهم وهم أحياء.

استفتح الطائي قصيدته المعنونة بـ "سبايكر تستفيق" بهذا النص الموازي: «لا يمكن لأديب عراقي أن يكتب إلا ويستذكر جريمة سبايكر النكراء التي ارتكبها الدواعش المجرمون بقتلهم أكثر من ١٧٠٠ شاب عراقي بدمٍ بارد:

سبايكر قفي
امسحي الدمع
وانظريهم،
هناك في الأفق البعيد
إنّهم نالوا طيوف الله
وأسرجوا كل الأغاني
والأماني» (السابق: ٢١).

فمن هذه الإطلالة يتبيّن لنا اهتمام الطائي بقضايا المجتمع وما يجري على أرض الوطن. فعندما يرى مثل هذه الأحداث المؤلمة فلا يمسك قلمه فيبقى يسترسل الزفرات ويكتب ما جاشت به قريحته مواسياً أبناء الوطن.

وفي المقطع الثاني من هذه القصيدة ينشد:
سبايكر قفي
امسحي الدمع عن عينيك
فالفرح الغامر قادمٌ
يحملُ الطاعات في أنهاره فرضاً
احملي السيف
يزهر رغم قامات القيود ... .
إليك فلتقف المنايا
لا إلى الآهات
لا عزماتهم تطفي النشيد.
الأمّ مدرسة الشهادة
والشهيد:

(دللوي يا الولد يا ابني) (السابق: ٢٢).

ففي هذا النص يطلب من سبايكر أن تقف وتمسح دموعها لأنّ الفرح قادمٌ والأمل كبير. وفي هذا السياق يستذكر هذا البيت الشهير: «الأم مدرسة إذا أعددتها / أعددت شعبا طيب الأعراق». كما يستدعي من ذاكرة التراث الشعبي هذا النص الموحي (دللوي يا الولد يا ابني).

القتل والارهاب:

في ظل الظروف القاسية في العراق، وتتابع الحروب وما خلّفته من الأوضاع السياسية والاجتماعية المتدهورة، شعر الطائي بالألم بكلّ كيانه؛ فمثل هذه الأحداث الحربية المهيبة وما خلّفته من قتل وارهاب وتشرّد أثارت مشاعره، وكوّنت لديه هذه الهواجس الإنسانية والدفاع عن كرامة الإنسان في مواجهة الظلم والاستبداد. إنّه تحدّث عن مشاكل الحرب، ومقتل الناس الأبرياء على يد المستبدّين الطغاة. وقد صوّر الكثير من الأعمال الأرهابية التي قام بها الدواعش في العراق. وفي قصيدة موسومة بـ "من كربلاء المصير" يصف فيهال العمل الجبان الذي قام به الدواعش في مصير كربلاء من قتل الرجال والنساء الأبرياء الذي يسيرون نحو كربلاء وقد أنهكهم طول الطريق وبُعد المسافة. يقول في هذه القصيدة:

من نزف دماء طاهرة
فوق أديم
ألوانٌ .. قوس قزح ...
وكنشر سديم
دمّ مسفوح
.....
الفتيان الأبطال
أشلاء في سفح الطف
أف.. غارة بدماء
منذ ... الإسراء
وحتى عاشوراء
أنهار دماء
وتوالت عاشوراوات
بدماء الزوار.. زوار السبط
في الطرقات
من دون سراويل
و لا أكمام (السابق: ٧١و٨٠).

ويتابع كلامه في هذا النص الحزين الذي يصوّر فيه قتل الأبرياء من أبناء الشعب:

حيث الأرواح الغاليةُ
تُذبح
في طرقات الهمس الصارخ
حيث الموت الباذخ إذ يتشظّى الإنسان بكلّ مكان

حيث الدنيا لا كالدنيا

تقتلنا

تستهوينا،

تنصحنا،

تغوينا،

تنثر هذا الورد جزافاً

وتحوّله سكينا،

تطعن خاصرة التاريخ

تقتلُ حاضرنا

وماضينا (السابق: ٨٢).

في ظل تلك الظروف المتدهورة أنشد الطائي هذه النصوص الطافحة بالألم متأثّراً بالأوضاع الاجتماعية السائدة على كل طبقات الشعب، فتعرّض إلى مناهضة هذا الموت والإبادادت الجماعية وجاهد بلغة الشعر في سبيل دحرها والتصدّي لها. وفي النص التالي يصرّح بكثرة القتل على أرض الوطن حيث قد ملّ عزرائيل من قبض الأرواح:

عرفتُ بأنّ المولى عزرائيل

قد ملّ القتل

وزهق الأرواح

أرواح الأطفال الرُضّع في طرقات الوطن

المذبوحين

والمدفونين بلا كفنٍ (السابق: ٨٤)

ولا يخفى أنّ استدعاء الشاعر للأطفال الرُضّع في هذا السياق يشكّل بؤرة دلاليّة مشحونة بالإيحاء، ففي ظل الحرب وقساوتها، تتعرّض الأطفال إلى أضرار فادحة منها القتل واليتم والتشريد. وهذا الموت العام يتعدّى البشر فيصل إلى الكلمات، فالكلمات أيضاً تموت بسبب الوضع المتردي وخوفاً من وشاية الإخوان:

حينما تموت الكلمة خوفاً

حينما تُولد الكلمةُ من رحِم عقلي

بعد مخاضِ الفكر المؤلم،

وسهر الليالي،

تموت على شفاهي خوفاً من الإخوان (السابق، ١٠٨).

إنَّ هذا الشعور بالموت هو شعور ملازم للمرء في بلد يسوده القتل والارهاب والبطش؛ فعندما يجد الانسان نفسه محاطاً بهذا الوضع المأساوي يبقى هاجس الموت يلازمه كظله، وينشد شعراً للتعبير عمّا يراه في الشارع منددّاً بهذه الحالات السائدة.

<u>الحشد الشعبي</u>:

بعد سقوط الموصول وديالى والأنبار بيد الدواعش، وانطلاق فتوى الجهاد الكفائي لردعهم، انبرى الحشد الشعبي لكي يطهّر أرض العراق المباركة وقد سجّل انجازات تاريخية في هذا المجال. والطائي في قصيدة له يشيد ببطولات الحشد الشعبي قائلاً:

رتّل تواشيحَ الهوى
فالحشدُ
قد رفع اللوا
والشعبُ هبّ جميعهُ
ومشى يطهّر نينوى
الدمُ كان رسولَه
روّى الحقيقة
وارتوى
يا سيّد البلدان
أنت بكلّ ركنٍ
محتوى
يا ما حضاراتٍ صنعتَ
وفيك تاريخ ثوى
خسئ الدواعش
إنهم
كلبٍ على قمر عوى (السابق: ٢٦).

فهذا المقبوس يدلّ على دور الحشد الريادي في تحرير المدن بما فيها نينوى فقد رفعوا اللواء ونهضوا للتحرير وناصرهم في هذه المهمة الشعب جميعه. ثم في هذا السياق يشير الشاعر إلى مكانة العراق وحضاراته القديمة، فيعتبره كالقمر وسط السماء/التاريخ ولا يهمّه نباح كلاب داعش. في قصيدة أخرى أيضاً يشيد ببطولات الحشد قائلا:

يا جيشنا يا باسلاً في حربه — عمّرتَ صرح الحق نوراً يجتني
ورفعت رايات الابا خفّاقةً — فوق الشموس وفي الربوع وأهلنا
أكرم بنصرٍ لا يزالُ مُواكِباً — شرفَ النفوس وبِشرنا في نصرِنا
يا حيهلا يا حيهلا يا حيهلا — فعدوُّنا ذاقَ المرار وما هنا
سلمت يدُ الحشد المبارك أينما — قامت عزائمه تباريها القنا (السابق: ٢٨)

ففي هذه الأبيات يشيد ببطولات الجيش الباسل في قتاله ضد العدو، وقد رفعوا رايات العزة والكرامة في أعالى البلاد، وأذاقوا العدو المرارة ولم يعجزوا في مسيرتهم النضالية المباركة. في هذه الأبيات يبدأ الطائي بأسلوب النداء (يا جيشنا يا باسلاً ....)، والنداء يأتي لتحقيق نوع من التواصل بين الشاعر وبين المنادى؛ ويدلّ على عظمة المنادى ومكانته في قلب الشاعر. فالنداء يشكل نمطاً من أنماط الجمل ذات الأثر الأسلوبي اللافت في النص، وهو ظاهرة لغوية محضة، لكنّه يستحيل في القصيدة إلى ظاهرة شعورية، تكثّف أحاسيس الشاعر المتخبّط في حالة من الضياع (راشد، داؤد، ٢٠١٥م: ٥٧).

<u>الجهل والتخلف</u>:

في ظل هذه الظروف السياسية والاجتماعية، وتتالي الحروب في هذا البلد، والفقر الناجم عن ذلك انتشرت مظاهر من الجهل والتخلّف. والشعراء لم يصمتوا مع هذا الوضع، فحضور أغلبهم في بطن المجتمع ولمسهم معاناة الناس أدّى إلى تقديمهم

صور صادقة من مشاكل المجتمع (ناظري ومحمود آبادي، ١٣٩٠ش: ٢٧). والطائي أخذ يعبّر عمّا يدور حوله ويكشف عن أسباب التخلّف الذي لحقَ بهذه الأمة:

اليوم نحن أمة
بجانب الحق
وندمن الكذب
ونربط الصحيح
من أخلاقنا
بذي الجرب!
نشغل بالسلال
عن العنب!
ونحن ناكرون
لا نشكر الكريم
ونكرم اللئيم
نعشق من يسومنا
الهوانَ والكُرَب
فأين منا أمة العرب
بل نحن منها أعجب العجب (الطائي، ٢٠١٧م: ٣٩).
وقصيدة أخرى يناشد فيها (يا أخوتي النيام) فيقول:
نبحثُ عن أخطائنا
فلا نرى لها سوى مظلّةٍ من العِلل
لأنّنا عبر الزمان كُلّهِ
نموت في الجهل،
ونعشقُ الوعيد،
يسحرنا التهديد،
وإن يزيدوا مَسخَنا،
نصبحُ ملء صوتنا
هل من مزيد؟
هل من مزيد؟ (السابق: ٤٠و٤١)

وقمة الجهل والتخلّف تظهر عندما يمتلك الجهلاء زمام البلد فيقلبون الحياة إلى جحيم بجهلهم:

ولم يبق لي إلا أنا،
ولكنّ أناي مهمشةٌ،
تكاد تئنُّ من ظلامات الجور،
يا لتعس الحياة حينما يقودها الجهلاء،

ويخرس فيها الأُصلاء،

ويبيع النبلاء شرفهم على أبواب البرلمان! (السابق: ٥٥)

فيرى نفسه الشاعر نفسه / ذاته الجماعية وحيدة ومهمّشة وتكاد تئنّ من كثرة الظلم والجور، فيرى الحياة تعيسة بل مهزلة عندما يتولّى أمرها الجهلاء المتخلفين، ولا يعلو للأصلاء النبلاء صوتٌ في هذا المجال.

فساد الساسة والحُكّام:

الأوضاع الاجتماعية وأحوال المجتمع العراقي لا تبشر بخير، حيث أنّ الحرمان والفقر مخيّمان على البلاد، والكثير من المفاسد الاجتماعية مسيطرة على المجتمع وكان ومازال أكثر الناس يعيشون الفقر والحرمان والخواء، وشاعرنا صالح الطائي كان ملتزماً وصاحب نزعة إنسانية فلم يستطع أن يتحمّل الفقر والحرمان المسيطرينِ على حياة الناس. يرى أعظم أسباب هذا التخلّف والتردّي المعيشي يعود إلى الفساد المتسرّي في البلاد؛ فيبدأ بالبحث عن فقيدٍ يُسمّى الوطن:

أبحث عن فقيدٍ اسمه وطن!

يأكله الأولاد والفساد والعفن،

لم يبق في ذاكرتي منه

سوى بقايا من وثن (السابق، ٥٩)

فهذا الوطن المفقود أحاط به الفساد والعفن، ولم يتبقّ منه سوى بقايا من وثن كما يراه الشاعر.

لستُ بعيداً

فعلى بُعدِ شهقةٍ منّي

يقع الوطن مضرّجاً بفساد الحُكّام (السابق: ٥٥)

فيعتقد الشاعر أنّ هذا الوطن راح ضحية فساد الحُكّام الذين لا يهمّهم أمره فانشغلوا عنه بمنافعهم الشخصية.

قابعون في قصورهم

يحيط بهم حراسهم

أولئك المتخمون

بالرذيلة،

أولئك الذين سمُّوا أنفسهم بالعرب الحكّام (السابق: ٥١ و٥٢)

هؤلاء الذين أطلقوا على أنفسهم حكّام العرب فهم قابعون في قصورهم ومنشغلون بأمورهم يحيط بهم حراسهم ويمارسون أبشع الرذائل غير مكترثين بالشعب وهمومه ومتطلباته.

الحزن والهموم:

منذ أن وُجِد الإنسان وهو يعاني أزمة الحياة ويدرك ما فيها من خير وشر، وسرور وحزن. شعور الإنسان بالألم والحزن ضلّ يرافقه في الحياة وهذه الآلام تكون لفقد عزيز أو أمنية أو نعمة أو تكون لحرمان ممّا يحب ويريد في الحياة. الحزن من الانفعالات النفسية السلبية الواضحة في الشعر العربي الحديث التي نَتَجت عن الاضطرابات السياسية والاجتماعية في الواقع العربي. والحقيقة أنّ علم النفس لم يتناول الحزن منفرداً بقدر ما تناوله منطوياً تحت أشكال متعدّدة من الانفعالات التي تكون مرضية غالباً، فجاء الاكتئاب أحد أهمّ الانفعالات النفسية المرضية التي ينطوي عليها الحزن (قاروط، ٢٠٠٨م: ١٤٦). ولعلنا من زاوية أخرى يمكن أن نسلّم بأن «ظاهرة الحزن في الشعر العربي المعاصر أثر من آثار اليأس من

الحضارة المادية والنقمة عليها، وإنّما هي تعلو على المادي والروحي معاً وتصدر عن النظرة الرحبة إلى الأشياء في شتّى جوانبها وعن استهلاك موضوع الرؤية خلال التكرار» (اسماعيل، ١٩٧٢م : ٣٥٦).

للحزن نكهة خاصة في الشعر العراقي فأصبح ميزة يتميّز بها عن غيره. يقول الناقد علي جعفر العلاق: «كان الشعر العراقي – وهذا الحكم لا يخلو من استثناءات طبعاً – ابن الحرقة الدائمة والعذاب اليومي، وكان أيضاً ابن بيئة شعرية شديدة الوعورة، بيئة، كما كتبت في أكثر من مكان، عجنت حجارتها بالحبر والدم؛ لقد ورثت هذه البيئة جذوة القلق، والتفجّع، والارتطام بالموت منذ القدم: من نواح جلجامش على أنكيدو، مروراً بكل ما شهدته هذه البلاد العجيبة، بلاد ما بين النهرين من مجازر وأعراس وحضارات؛ إنّها بيئة هذا الغناء المثقل بالأسى والحنين» (٢٠٠٧م: ١١٠ – ١١٢). يعبّر الطائي عن حزنه كما يلي:

صحيح إنّي
لا أجيدُ العزفَ على جرحي،
لكنّي سيّدٌ بالنواح
من كثرة الدموع
من مصائد الجراح؛
لأنّني مسكون بالآهات،
وحزني غدرانٌ بل أنهار
تقتفي الريحاح (الطائي، ٢٠١٧م: ١٠٩)

أصبح الشاعر سيّد النواح من كثرة الدموع التي سكبها على جراحه/جراح الوطن، وهو مسكونٌ بالآهات، وأحزانه غدران بل أنهار من كثرة الدموع الساكبة. وهذا الحزن يعود لقسوة الأيام المملوء بالقهر والوجع الدفين:

قاسيةٌ أيامنا يملؤها القهر
وحطنما تهرول السنين
يغمرنا الحنين،
وتستفيق ذكريات الأمس.. والوجع الدفين،
والظل ممدودٌ بين العشّ والرمس (السابق: ٨٩)

فهذا النص يعبّر بصدق وإخلاص عن هموم الشاعر وإهتمامه بمصير الشعب. فالأيام القاسية الطافحة بالقهر، وتهرول السنين المتتالية، والحنين للماضي، وذكريات الأمس، والوجع الدفين، كل هذه حطّمت كيان الشاعر وجلبت له الحزن؛ فلا يجد أمامه إلّا الوجع والآهات:

فلا أجد سوى وجعٍ قديم
وآهات من فقدت وحيدها،
وأنين حمامة اقتلعت العاصفةُ عشّها،
ورأت فرخها أرضاً يطيح (همان: ٨٩).

وأنين الحمامة يوحي بشدّة الحزن المخيّم على ذات الشاعر. إنّ الشعراء اتخذوا من هذا الطائر وسيلة للتعبير عمّا رسخ من مكبوت نفسي مؤلم، وللتعبير عن الاستجابة الخاصة التي يبديها الإنسان الشاعر للطبيعة، فالعذاب والنوح الذي تعلنه

الحمامة هو المكافئ الخارجي لانفعال الشاعر الداخلي ولحزنه وألمه ونوحه على من رحل منه، وكأن ما تعلنه الحمامة ينسجم مع ما يكنه الشاعر في نفسه، وكأنها تعبّر عن مكبوته ما يحتضنه من ألم (شمسي، ٢٠٠٨م: ١١٦). وللعلاقة التي تربط الشعراء بالحمامة أصول رمزية لأنها «رمز للمأوى ورمز للود ورمز للخصوبة والأنوثة والوداعة، ثم هي رمز للحزن والشوق والصبابة والبكاء، ثم هي رمز للألفة المشهور من تآلف الحمام» (الطيب، ١٩٧٠م:٣/٩١٠).

النتائج:

- لقد عالج صالح الطائي المجتمع في نتاجاته الشعرية وتطرّق إلى قضايا هامّة في مجتمعه حتى أصبح هذا المجتمع من أساسيات شعره. الأوضاع الاجتماعيّة والسياسية والثقافيّة المتدهورة في المجتمع العراقي دفعت الشاعر إلى تناول القضايا الاجتماعيّة في نتاجاته الشعريّة.

- تطرّق الطائي في ديوانه إلى قضايا اجتماعية وسياسية لمرحلة حسّاسة من تاريخ العراق فندّد بداعش وما ارتكبه من جرائم ضد الأبرياء من قتل وارهاب وتشريد، كما تغنّى ببطولات جيش الحشد الشعبي وما حقّقه من انتصارات ضد الأعداء.

- لا يهمل الشاعر قضايا اجتماعية ابتلى بها المجتمع كالفقر، والتخلّف، والحزن والهموم، وفساد الساسة والحكّام، وكان يطمح كي يرى بلده العراق يتخطّى هذه المرحلة ويلتحق بالعالم.

- جاءت نصوص الطائي نغمات متصاعدة من قلب متألّم قد تجرّع المشاكل والآلام، واكتوى بنار الظلم والاضطهاد.

- يلقي الطائي نظرة فلسفية متأنيّة على قضايا المجتمع العراقي، ويركّز على قضايا ذات صلة بالحياة والكينونة فيتعامل معها بخلفية علقية نابعة من نتاجاته العلمية السابقة.

- أنّ الشاعر لا يعيش منطوياً على نفسه وإنّما يعيش لمواطنيه فلا ينسى مصائب المجتمع وآلامه، حيث أصبحت رسالته رسالة إنسانية سامية، يسعى من وراءها إلى إزالة الحواجز التي تحول بين أبناء شعبه وبين شعوب العالم، فيريد لشعبه مثل ما تنعم به الشعوب الأخرى.

قائمة المصادر:

- القرآن الكريم.
- اسماعيل، عزالدين (١٩٧٢م): **الشعر العربي المعاصر / قضاياه و ظواهره الفنية و المعنوية**، ط٢، بيروت، دار الثقافة.
- تاريبه، جان ايف (١٩٩٤م): **النقد الأدبي في القرن العشرين**، ترجمة منذر عياشي، ط١، حلب، دار الحاسوب للطباعة.
- بدوي، محمد جاهين (٢٠١٠م): العشق والاغتراب في شعر يحيى السماوي، دمشق، دار الينابيع.
- حجازى، سمير (٢٠٠٧م): قضايا النقد الأدبي المعاصر، ط١، القاهرة: دار الآفاق العربية.
- حمداوي، جميل (٢٠١٥م): سوسيولوجيا الأدب و النقد، ط١، مغرب، مكتبة المعارف.
- راشد، ذياب، وجمانة داؤد (٢٠١٥م): «السمات الأسلوبية في قصيدة بلقيس لنزار قباني»، **مجلة دراسات في اللغة العربيّة وآدابها**، جامعة سمنان – تشرين، العدد ٢٠، صص ٥١-٧٠).
- زيما، بيير (١٩٩١م): **النقد الاجتماعي نحو علم اجتماع النص الأدبي**، ترجمة عايدة لطفي، ط١، القاهرة، دار الفكر.
- ستوده، هدايت الله (١٣٧٨ش): **جامعه شناسى در ادبيات فارسى**، تهران، آواي نور.
- شمسي، حسن جبار محمد (٢٠٠٨م): **ملامح الرمز في الغزل العربي القديم**، لندن، دار السياب.
- العلاق، علي جعفر(٢٠٠٧م): **ها هي الغابة فأين الأشجار**،الأردن، دار الأزمنة.
- الطائي، صالح (٢٠١٧م): **نوبات شعرية**، ط١، سوريا، دار ليندا للطباعة والنشر والتوزيع.
- الطيب، عبدالله (١٩٧٠م): **المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها**، بيروت، دار الفكر.
- قاروط، ماجد فارس (٢٠٠٨م): **تجليات اللون في الشعر العربي الحديث**، ط١، الدوحة، وزارة الثقافة والفنون والتراث.
- مدنى، نسرين (١٣٨٦ش): «ادبيات تطبيقى و تطبيق شعر معاصر عرب و شعر معاصر ايران غاده السّمان با تكيه بر شعر فروغ فرخزاد و غادة السمان»، **فصلنامه مطالعات ادبيات تطبيقي**، دانشگاه آزاد جيرفت، سال اول، شماره دوم، صص ١٦٩ – ١٧٨.

- ناظری، حسین ومعصومه محمود آبادی (١٣٩٠ش): «آسیب های اجتماعی از دیدگاه جمیل صدقی الزهاوی»، **مجلة نقد أدب معاصر عربی**، دانشگاه یزد، سال دوم، شماره اول، صص ٨١-١٠٢.

- نعمتی قزوینی، معصومه و طاهره ایشانی (١٣٩٢ش)، «*بررسی سنجشی مضامین سیاسی اشعار سپیده کاشانی و نازك الملائکه*»، **مجله ادبیات پارسی معاصر**، پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی، سال ٣، شماره ٣، صص ١٢٥- ١٥٢.

- هدارة، محمد مصطفى (١٩٩٠م): **الإنسان في شعر نازك الملائكة**، الكويت، شركة الربيعان لنشر و التوزيع.

الانترنت:

- موقع الكاردينيا، مجلة ثقافية عامة، ١٧/ اغسطس/ ٢٠١٧م، على الرابط التالي:

https://algardenia.com/٢٠١٤-٠٤-٠٤-١٩-٥٢-٢٠/qosqsah/٣١٤٨٦-٢٠١٧-٠٨-١٧-٠٨-٥٤-٥٧.html